

وكذا ، فلما حاور القاضى المتهم أنكر فأنصرف عنه ، وتوجه إلى صاحب الأمانة ، وقال له : اذهب إلى هذا المكان ، وابحث لعلك تكون قد نسيتَه هنا أو هناك .

أو لعل آخر أخذه منك ، فذهب صاحب المال ، وفجأة سأل القاضى المتهم : لماذا تأخر فلان طوال هذا الوقت ؟ فردَّ المتهم : لأن المكان بعيدٌ يا سيادة القاضى ، فخائفة ناكرتَه ، ونطق بالحق دون أن يشعر .

ثم يقول تعالى : ﴿يَأْتُوكَ رَجَالًا .. (٢٧)﴾ [الحج] ورجالاً هنا ليست جمعاً لرجل ، إنما جمع لواجل ، وهو الذى يسير على رجلَيْه ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ .. (٢٧)﴾ [الحج] الضامِر : الفرس لو البعير المهزول من طول السير .

وتقديم الماشين على الراكبين تأكيد للحكم الإلهى ﴿يَأْتُوكَ .. (٢٧)﴾ [الحج] فالجميع حريص على أدائه الفريضة حتى إن حجَّ ماشياً . وقوله : ﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)﴾ [الحج] أى : من كل طريق واسع ﴿عَمِيقٍ (٢٧)﴾ [الحج] يعنى : بعيد . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ (٢٨)﴾

كلمة ﴿مَنَافِعَ .. (٢٨)﴾ [الحج] كلمة عامة واسعة تشمل كل أنواع النفع : مادية دنيوية ، أو دينية أخروية ، ولا ينبغي أن تُضيق

ما وسَّجِهَ اللهُ ، فكلُّ ما يتصل بالحج من حركات الحياة بُعد من المنافع ، فاستعدادك للحج ، وتدريب نفقاته وأدواته ورأبضه فيها منافع لك ولغيرك حين توفر لأهلك ما يكفيهم حتى تعود .

ما يتم من حركة بيع وشراء في مناطق الحج ، كلها منافع متبادلة بين الناس ، التاجر الذي يبيع لك ، وصاحب البيت الذي يؤجره لك ، وصاحب السيارة التي تنقلك .

إذن : المنافع المادية في الحج كثيرة ومتشابهة ، متداخلة مع المنافع الدنيوية الأخروية ، فحين تشتري الهدى^(١) مثلاً تؤدي نسكاً وتتفع التاجر الذي باع لك ، والمربي الذي ربى هذا الهدى ، والجزار الذي ذبحه ، والفقير الذي أكل منه .

إذن : لا يتم الحج إلا بحركة حياة واسعة ، فيها نفع لك وللناس من حيث لا تدري ، ولك أن تنتظر في الهدايا التي يطلبها الحجاج معهم لأهلهم وذويهم ، خاصة المصريين منهم ، فتري بعضهم يتشغل بجمع هذه الأشياء قبل أن يؤدي نسكه ويقضي معظم وقته في الأسواق ، وكأنه لن يكون حاجاً إلا إذا عاد محملاً بهذه الهدايا .

لذلك كان يأتي إلينا بعض هؤلاء يسألون : أنا على دم متعة^(٢)

(١) الهدى : الذبيحة قُهِدَى إلى الحرم في الحج [القاموس القويم ٢/ ٢٠٦] وهو مستحب للحاج المفرد والمفتمر المفرد . وواجب على التارن والمتمتع . وكذلك على من ترك واجباً من واجبات الحج كرمى الجمار أو طواف الوداع . وكذلك واجب على من ارتكب محظوراً من محظورات الإحرام ، غير الوطء ، كالتلطيط والحلق . [انظر تفصيل هذا وشروط الهدى في كتاب فقه السنة للشيخ سيد سابق ١/ ٥٢٦] .

(٢) التمتع : هو الإجماع في أشهر الحج ، ثم يجمع من جابه الذي أمقر فيه ، وسمى تمتعاً للانقطاع بإداء النسكين في أشهر الحج في عام واحد ، من غير أن يرجع إلى بلد . وصفة التمتع أن يحرم من المفقات بالمعرة وحدها ، ويقول عند التلبية : ليك بعمره ، ويؤدي مناسك المعرة ، ثم يتحلل من إحرامه ويشتنع بكل ما كان محرماً عليه إلى أن يجزء يوم القرية ، فيحرم من مكة والحج . وهذا يجب عليه الهدى [فقه السنة ١/ ٤٦٥ ، ٤٦٦] .

وليس معنى نقود ، فماذا أفعل ؟ يريد أن يصوم ، صحيح : كيف سيؤدى ما عليه وقد أنفق كل ما معه ؟ فكنت أقول له : أعطنى حقيقة سرك ، وسأبيع ما بها ، ولن أبقى لك إلا ما يكفيك من نفقات حتى تعود .

أليست هذه كلها من المنافع ؟

ومن منافع الحج أن الحاج منذ أن ينرى أداء هذه الفريضة ويُعد نفسه لها إعداداً مادياً ، وإعداداً نفسياً معنوياً ، فيحاول أن يُعيد حساباته من جديد ، ويُصلح من نفسه ما كان فاسداً ، وينتهى عما كان يقع فيه من معصية الله ، ويُصلح ما بينه وبين الناس . إذن : يجرى عملية تنقل خاصة تُحوّله إلى إنسان جديد يليق بهذا الموقف العظيم ، ويكون أهلاً لرؤية بيت الله والطواف به .

ومن الإعداد للحج أن يتعلم الحاج ما له وما عليه ، ويتأدب بأداب الحج فيعرف محظوراته وما يحرم عليه ، وأنه سوف يتنازل عن هئامه وملابسه التي يزهو بها ، ومكانته التي يفخر بها بين الناس ، وكيف أن الإحرام يُسوى بين الجميع .

يتعلم كيف يتأدب مع نفسه ، ومع كل أجناس الكون من حوله^(١) ، مع نفسه فلا يُفكر فى معصية ، ولا تمتد يده حتى على شعرة من شعره ، أو ظفر من أظافره ولا يقرب طيباً ، ولا حتى صابونة لها رائحة .

والعجيب أن الحاج ساعة يدخل فى الإحرام يحرص كل الحرص

(١) يقصد سيد المصرم بالحج أو العمرة : يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ۚ ﴾ [المائدة] . ويقول أيضاً : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَسْرَائِكُمْ وَحُرْمٌ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۚ ﴾ [المائدة] .

على هذه الأحكام ، وأنحدى أى إنسان ينوى الحج ويأخذ فى الإحرام به ، ثم يفكر فى معصية ؛ لأنه يُعدُّ نفسه لمرحلة جديدة يتطهر فيها من الذنوب ، فكيف يكتسب المزيد منها وقد أتى من بلاد بعيدة ليتطهر منها ؟

وفى الحج يتأدب الحاج مع الحيوان ، فلا يصيده ولا يقتله ، ومع النباتات فلا يقطع شجراً . يتأدب حتى مع الجملاد الذى يعتبره أدنى اجناس الكون ، فيحرم على تقبيل الحجر الأسود ، ويجتهد فى الوصول إليه ، فإن لم يستطع أشار إليه بيده .

إن الحج القزام وانضباط يفوق أى انضباط يعرفه أهل الدنيا فى حركة حياتهم ، ففى الحج ترى هذا الإنسان السيد الأعلى لكل المخلوقات كم هو منكسر خاضع مهما كانت منزلته ، وكم هى طمأنينة النفس البشرية حين تُقبل حجراً وهى راضية خاضعة ، بل ويحزن الإنسان إذا لم يتمكن من تقبيل الحجر .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَذَكَرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَثَامٍ مُّعْتَمَاتٍ .. ﴾ (٢٨)

[الحج]

يذكروا اسم الله : لأن كل أعمال الحج مصحوبة بذكر الله وتلبية ، فَمَا مِنْ عَمَلٍ يُؤَدِّيهِ الْحَاجُّ إِلَّا وَيَقُولُ : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ . ونظال التلبية شاغله وديدنه إلى أن يرمى جمرة العقبة ، ومعنى « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ » أن مشاغل الدنيا تطلبنى ، وأنت تطلبنى لأداء فَرَضِكَ على ، فأنا أَلْبَيْكَ أنت أولاً ؛ لأنك خالقى وخالق كل ما يشغلنى ويأخذنى منك .

سورة البقرة

﴿٩٧٨﴾

والأيام المعلومات هي : أيام التشريق ^(١) .

ومعنى : ﴿وَعَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ .. (٧٨)﴾ [الحج] أى : يشكرون الله على هذا الرزق الوقتى الذى يأكلون منه ويشربون ، ويبيعون ويشتررون فى أوقات الحج . أو يشكرون الله على أن خلق لهم هذه الأنعام ، وإن لم يحجوا ، ففى خلق الأنعام - وهى الإبل والبقر والغنم والماعز - وتسخيرها للإنسان حكمة بالغة ، فضلاً عن الانتفاع بلحمها وألبانها وأصوافها وأوبارها اذكروا الله واشكروه أن سخرها لكم ، فلولا تسخير الله لها لما استطعتم أن تبتنعوا بها ، فالجمل مثلاً هذا الحيوان الضخم يقوده الطفل الصغير ، ويُنِيخه ويحمّله فى حين لم يستطع الإنسان تسخير الثعبان مثلاً أو الذئب .

لذلك يقول تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ .. (٧٢)﴾ [يس]

لذلك نذكر الله ونشكره على ما رزقنا من بهيمة الأنعام استمتاعاً بها أكلاً ، أو استمتاعاً بها بيعاً أو زينة ، كما قال تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تُسْرَحُونَ (٦)﴾ [النحل]

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣/٢١٧) أربعة أقوال فى تأويل الأيام المعلومات :
- أيام العشر الأول من شهر ذى الحجة . قاله ابن عباس وأبو موسى الأشعري ومجاهد وغيرهم وهو مذهب الشافعي والمشهور عن أحمد بن حنبل .
- يوم النحر وثلاثة أيام بعده . وهو أيام ١٠ ، ١١ ، ١٢ من شهر ذى الحجة وهى المعصاة بأيام التشريق . قاله ابن عباس وابن عمر وإليه ذهب أحمد بن حنبل فى رواية عنه .

- يوم النحر ويومان بعده . قاله ابن عمر والسدي وهو مذهب مالك .
- يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق . قاله زيد بن أسلم أى أيام ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ من شهر ذى الحجة .

ولولا أن الله تعالى ذللها لخدمتك ما استطعت أنت تذليلها
والانتفاع بها ؛ لذلك من حكمة الله أن يترك بعض خلقه غير
مُسْتَأْنَس ، ولا يمكن لك بحال أن تستأنسه أو تُذَلِّله لنقل على ذكر
لهذه النعمة ، وتشكر الله عليها .

وسبق أن ضربنا مثلاً بالبرغوث ، وهو من أدنى هذه المخلوقات ،
ولا تكاد تراه ، ومع ذلك لا تقدر عليه ، وربما أفضى مضجعتك ، وأقلق
نومك طوال الليل . وتلمس هذه النعمة في الجمل الذي يقوده الصبي
الصغير ، إذا حرن^(١) منك فلا تستطيع أن تجعله يسير رُخاً عنه ، أو
صَلَّ فلا يقدر عليه أحد ، وقد يقتل صاحبه ويبطش بمن حوله .

إذن : لا قدرة لك عليه بذاتك ، إنما بتذليل الله يمكن الانتفاع به ،
فتسوقه إلى نُحره ، فيقف ساكناً مُسْتَسْلماً لك .

والمأمل في حال الحيوانات التي أحلها الله لنا يجد أمرها عجيباً ،
فالحيران الذي أحله الله لك تظل تنتفع به طوال عمره ، فإذا ما تعرض
لما يزهق روحه ، ماذا يفعل ؟ يرفع رأسه إلى أعلى ، ويعطيك مكان
ذُبْحِه . وكأنه يقول لك : أنا في اللحظات الأخيرة فاجتهد في أن تنتفع
بلحمي . وأهل الريف إذا شاهدوا مثل هذه الحالة يقولون : طلب
الحلال يعني الذبح . أما الحيوان الذي لا يُذبح ولا يُحله الله فيموت
مُنْكَس الرأس ؛ لأنه لا فائدة منه .

هذا الحيوان الذي نتهمه بالفناء ونقول أنه بهيم .. الخ لو فكرت

(١) حرمت الذاقة : قامت فلم تبرز . [أى : رفضت السير] . لا تنفاد : إذا استُخِر [طلب
منها] جريها وقتت . [لسان العرب - مادة : حرن] .

فيه لتفكير رأيك ، فالحمار الذي نتخذه رمزاً للغباء وعدم الفهم تسوق أمامك وتحمله القاذورات وتضربه فلا يعترض عليك ولا يخالفك ، فإن نظفت وزينته بلجام فضة ، وبردة قطيفة تتخذه ركوبة وزينة ويسير بك ويحملك ، وأنت على ظهره ، فإن غضبت عليه واستخدمته في الاحمال وفي القاذورات تحمل راضياً مطيعاً..

وانظر إلى هذا الحمار الذي نتخذه مثلاً للغباء ، إذا أردت منه ان يتفكر فتاة أوسع من قدرته وإمكاناته ، فإنه يتراجع ، ومهما خبرته وقسوت عليه لا يقدم عليها أبداً ؛ لأنه يعلم مدى قفزته ، ويعلم قدرته ، ولا يقدم على شيء فوق ما يطيق - وبعد ذلك نقول عنه : حمار !!

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْبَاسِ الْفَقِيرِ ﴾ (٧٨)

الباس : هو الذي يبدو على سحنته وشكله وزيه أنه فقير محتاج ، أما الفقير فهو محتاج الباطن ، وإن كان ظاهره اليسر والغنى ، وهؤلاء الفقراء لا يلتفت الناس إليهم ، وربما لا يعلمون حالهم وحاجتهم ، وقد قال الله فيهم : ﴿ يَخْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءُ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۚ ﴾ (٧٧) [البقرة]

والمعنى : كلوا مما يُباح لكم الأكل منه ، وهي الصدقة المحضه ، أو الهدية للبيت غير المشروطة بشيء ، يعنى : لا هي دم قرآن أو

(١) قال أبو بكر الجصاص (ت ٣٧٠ هـ) في كتابه « أحكام القرآن » : « دار الكتب العلمية (٣٠٧/٣) : « ظاهره يقتضى إيجاب الأكل ، إلا أن السلف مستحقون على أن الأكل منها ليس على الوجوب ، وقد روى عن عطاء والحسن وإبراهيم ومجاهد قالوا : « إن شاء أكل ، وإن شاء لم يأكل » .

تَمَلُّعٌ ، وَلَا هِيَ فِدْيَةٌ لِمُخَالَفَةِ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الْإِحْرَامِ ، أَوْ كَانَتْ نَذْرًا
فَهَذِهِ كُلُّهَا لَا يُؤْكَلُ مِنْهَا^(١) .

إِذَنْ : كُلُوا مِنَ الصَّدَقَةِ وَالتَّطَوُّعِ ، وَأَطْعَمُوا كَذَلِكَ الْبَائِسَ وَالْفَقِيرَ ،
وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِالْفُقَرَاءِ أَنْ جَعَلَ الْأَغْنِيَاءَ وَالْمَيَاسِيرَ هُمْ الَّذِينَ يَبْحَثُونَ
عَنِ الذَّبَائِحِ وَيَشْتَرُونَهَا وَيُذَمِّبُونَ لِمَكَانِ الذَّبِيحِ وَيَتَحَمَّلُونَ مَشَقَّةَ هَذَا
كُلِّهِ ، ثُمَّ يَبْحَثُونَ عَنِ الْفَقِيرِ لِيُعْطُوهُ وَهُوَ جَالِسٌ فِي مَكَانِهِ مُسْتَرِيحًا ،
يَأْتِيهِ رِزْقُهُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ سَهْلًا مُيسَّرًا .

لِذَلِكَ يَقُولُونَ : مَنْ شَرَفَ الْفَقِيرَ أَنْ جَعَلَهُ اللَّهُ رَكْنًا مِنْ أَرْكَانِ
إِسْلَامِ الْغَنِيِّ ، أَيْ : فِي فَرِيضَةِ الزَّكَاةِ ، وَلَمْ يَجْعَلِ الْغَنَى رَكْنًا مِنْ
أَرْكَانِ إِسْلَامِ الْفَقِيرِ .

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ
وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ^(٢)

(١) قَالَ الْجُمْهُورُ فِي « أَحْكَامِ الْقُرْآنِ » ، (٢ / ٢٠٧) : « النَّاسُ فِي دَمِ الْقُرْآنِ وَالْمَتْعَةِ عَلَى
قَوْلَيْنِ : مَتَهُمْ مَنْ لَا يَجِيزُ الْأَكْلَ مِنْهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبِيحُ الْأَكْلَ مِنْهُ وَلَا يُوْجِبُهُ ، وَقَالَ
الْشَّافِعِيُّ فِي كِتَابِ الْأَمِّ (٢ / ٢٤٠) : « الْهَدْيُ هَدْيَانِ : وَاجِبٌ وَتَطَوُّعٌ ، فَكُلْ مَا كَانَ أَصْلُهُ
وَاجِبًا عَلَى إِنْسَانٍ لَيْسَ لَهُ حَبْسُهُ ، فَلَا يَأْكُلُ مِنْهُ شَيْئًا وَذَلِكَ مِثْلُ : مَدَى الْفَسَادِ وَالطَّيِّبِ
وَجُزْءِ الْعَصِيدِ وَالنُّلُورِ وَالْمَتْعَةِ ، وَإِنْ أَكَلَ مِنَ الْهَدْيِ الْوَاجِبِ تَصَدَّقَ بِبَقِيَّةِ مَا أَكَلَ مِنْهُ ، وَكُلَّ
مَا كَانَ أَصْلُهُ تَطَوُّعًا مِثْلَ الضَّحَايَا وَالْهَدَايَا تَطَوُّعًا أَكَلَ مِنْهُ وَأَطْعَمَ وَاهْدَى وَادَّخَرَ وَتَصَدَّقَ ،
وَاحَبَّ إِلَى أَنْ لَا يَأْكُلَ وَلَا يَحْبِسَ إِلَّا ثَلَاثًا وَيَهْدِي ثَلَاثًا وَيَتَصَدَّقُ بِثَلَاثٍ » .

(٢) قَالَ الزَّجَاجُ : لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ اللَّفْظَ الثَّلَاثَ إِلَّا مِنَ التَّفْسِيرِ ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : لَمْ يَجْرِهِ فِيهِ
شُعْرٌ يَحْتَجُّ بِهِ ، وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : « ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ » .. (١٣) [الْحَجَّ] . قَالَ : قَضَاءُ
حَرَاجِهِمْ مِنَ الْحَقِّ وَالتَّنْظِيفِ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : تَفَثَ] .

سُورَةُ الْحَجِّ

٩٧٩٣

﴿لَيَقْضُوا .. (٢٩)﴾ [الحج] كلمة قضاء تُقال ، إما لقضاء الله الذي يقضيه على الإنسان مثلاً ، وهو أمر لازم محكوم به ، وإما قضاء من إنسان بين متخصصين ، وأول شيء في مهمة القضاء أن يقطع الخصومة ، كان المعنى ﴿لَيَقْضُوا .. (٢٩)﴾ [الحج] أى : يقطعوا .

ومعنى ﴿تَنْفُتُهُمْ .. (٢٩)﴾ [الحج] لما نزل القرآن بهذه الكلمة لم تكن مستعملة في لسان قريش ، ولم تكن دائرة على أسنتهم . فسألوا عنها أهل البادية ، فقالوا : التفتتُ يعنى : الأدران والأوساخ التى تعلق بالجسم ، فقالوا : والله لم نعرفها إلا ساعة نزل القرآن بها .

فالمراد - إذن - ليقطعوا نفثهم أى الأدران التى لحقتهم بسبب التزامهم بأمور الإحرام ، حيث يمكث الحاج أيام الحج مُحَرَّمًا لا يتطيب ، ولا يأخذ شيئاً من شعره أو أظافره ، فإذا ما أنهى أعمال الحج وذبح هديه يجوز له أن يقطع هذا النفث ، ويزيل هذه الأدران بالتحلل من الإحرام ، وفعل ما كان محظوراً عليه .

وقوله تعالى : ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الحج] إن كان قد نذر الله شيئاً فعليه الوفاء به .

﴿وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)﴾ [الحج] يعنى : طواف الإفاضة ، والطواف : أن تدور حول شيء بحيث تبدأ وتنتهى ، وتبدأ وتنتهى ، وهكذا ، وقد وصف البيت بأنه عتيق ، وكلمة عتيق استعملت في اللغة استعمالاً واسعة . منها : القديم ، وما دام هو أول بيت وضع للناس فهو إذن قديم ، والقدم هنا صفة مدح : لأنها تعنى الشيء الثمين الذى يحافظ عليه ويهتم به .

كما نرى عند بعض الناس أشياء ثمينة ونادرة يحتفظون بها

ويتوارثونها يسمونها « العاديات » مثل : التحف وغيرها ، وكلما مرَّ عليها الزمن زادت قيمتها ، وغلا ثمنها .

والعتيق : الشيء الجميل الحسن ، والعتيق : المعتوق من السيطرة والعبودية لغيره ، فما المراد بوصف البيت هنا بأنه عتيق ؟

وصف البيت بالقدم يشمل كل هذه المعاني : فهو قديم ؛ لأنه أول بيت وضع للناس ، وهو غال ونفيس ونادر حيث نرى فيه ما لا نراه في غيره من آيات ، ويكفي أن رؤيته والطواف به تغفر الذنوب ، وهو بيت الله الذي لا مثيل له .

وهو كذلك عتيق بمعنى معتوق من سيطرة الغير : لأن الله حفظه من اعتداء الجبابرة ، ألا ترى قصة الفيل ، وما فعله الله بأبرهة حين أراد هدمه ؟ حتى الفيل الذي كان يتقدم هذا الجيش أدرك أن هذا اعتداءً على بيت الله ، فتراجع عن البيت ، وأخذ يتوجّه أى جهة أرادوا إلا ناحية الكعبة .

ويقال : إن رجالاً^(١) تقدم إلى الفيل . وقال في أذنه : أبرك محمود - اسم الفيل - وأرجع راشداً فإنك بيلد الله المرام . وقد عبّر الشاعر^(٢) عن هذا الموقف ، فقال :

حُبِسَ الفيل بالمُقَمَّسِ حَتَّى نَلَّ يَعْرِى كَأَنَّهُ مَعْقُورٌ^(٣)

ثم ينزل الله عليهم الطير الأبابيل التي ترميهم بالحجارة حتى المَرْت .

(١) هو : ثعلبة بن حبيب الخثعمي . فيما ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (١ / ٥٢) .

(٢) هو : أمية بن أبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي .

(٣) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (١ / ٦٠) هذا البيت ضمن أبيات أخرى لأمية بن أبي الصلت .

لذلك لما ذهب عبد المطلب جدُّ الرسول ﷺ ليُكَلِّمَ أبرهة في الإبل
المائة التي أخذها من إبله ، قال أبرهة : لقد كنتُ أماليك^(١) حين
رأيتك ، لكنك سقطت من نظري لما كلمتني في مائة بعير أصبتها لك ،
وقرحت البيت الذي فيه مجدكم وعزكم .

فماذا قال عبد المطلب ؟ قال : أما الإبل فإنها لي ، أما البيت فله
ربِّي يحميه .

البعض يتهم عبد المطلب لمقالته هذه بالسلبية ، وليست هذه
سلبية من كبير قريش ، إنما ثقة منه في حماية الله لبيته ؛ لذلك رَدَّه
إلى أقوى منه ، وكأنه قال : إن كنتُ أحميه أنا ، فسأحميه بقوة
وقدوتي وحيلتي ، لكنني أريد أن أُرعبه بقدرة الله وقوته ، وما سلَّمتُ
البيت إلَّا وأنا واثق أن ربَّ البيت سيحميه ، وهذه تُزلزل العدو
وتُربِّكه .

وما أشبه موقف عبد المطلب بموقف موسى عليه السلام ، لما
قال له قومه : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ (٦١) [الشعراء] فقال في يقين وثقة :
﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٦٢) [الشعراء]

إذن : لم يَكُنْ عبد المطلب سلبيًّا كما يتهمه البعض ، بل كان إيجابياً
من النوع الراقى ، فلو كان إيجابياً بالمعنى الذي يُريدون لأعطته هذه
الإيجابية منعةً بقوته هو ، إنما تُسرِّفه وما تعتبرونه سلبية أعطاه منعة
بقدرة الله وقوته سبحانه ؛ لذلك تدخلت فوراً جنود السماء .

(١) ويذكر ابن هشام في السيرة النبوية (٤٩/١) أن « عبد المطلب كان أوسم الناس
وأجملهم وأعظمهم ، فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يُجلسه تحته ، وكره أن
تراه العبيدة يجلس معه على سرير ملكه لئلا أبرهة من سريره ، فيطس على بساطه ،
وأجلسه معه عليه إلى جنبه » .

لكن ، لماذا الطواف والدوران حول الكعبة ؟

قالوا : لأن المسلم وهو غائب عن الكعبة يُصَلِّي لجهتها ، كل حسب موقعه منها ، فتجد المسلمين في كل أنحاء العالم يتجهون نحوها ، كل من ناحية ، هذا من الشمال ، وهذا من الجنوب ، وهذا من الشرق ، وهذا من الغرب . يعنى بكل الجهات الأصلية والفرعية . فإذا ما ذهبنا إلى الكعبة ذاتها ، وتشرفت برؤيتها ، فهل تستقبلها من نفس المكان الذى كنت تتجه إليه فى صلاتك وغيرك وغيرك ؟ إذن : فكل اتجاهات الكعبة سواء لك ولغيرك ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَيُّهَا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ .. ﴾ (١١٥) [البقرة] فليس هناك مكان أولى من مكان : لذلك نطوف حول البيت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۖ وَأَجَلْتُ لَكُمْ الْأَقْنَـمَ إِلَّا مَا مَثَلُ عَلَيْكُمْ فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْاَوْثَانِ ۚ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۚ ﴾ (٢٠)

﴿ ذَٰلِكَ .. ﴾ (٢٠) [الحج] إشارة إلى الكلام السابق بأنه أمر واضح . لكن استمع إلى أمر جديد سياسى ، فهذا استئناف كلام على كلام سابق ، فبعد الكلام عن البيت وما يتعلق به من مناسك الحج يستأنف السياق :

(١) الاوثان : جمع وثن . وهو التمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو لينة ونحوها وكلنت العرب تتصبها وتعبدها ، والنصارى تتصب للصليب وتعبد وتعظمه فهو كالتمثال أيضاً . وقال على ابن هاتم : أتيت النبى ﷺ وفى عنقه صليب من ذهب فقال : « ألق هذا الوثن عنك ، أى : الصليب وأصله من وثن الشيء أى : أدام فى مقامه . [تفسير القرطبي ٦/ ٤٥٨٥] .

سورة الحج

٩٧٩٧

﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتُ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ .. (٢٠)﴾ [الحج] فالحق - سبحانه - يريد لعبده أن يلتزم أوامره بفعل الأمر واجتناب النهي ، فكل أمر لله يحرم عليك أن تنكره ، وكل نهى يحرم عليك أن تأتيه ، لهذه هي حرمة الله التي ينبغي عليك تعظيمها بطاعة الأمر واجتناب النهي .

وحين تُعْظَمْ هذه الحرمات لا تُعْظَمها لذاتها ، فليس هناك شيء له حرمة في ذاته ، إنما تُعْظَمها لأنها حرمة الله وأوامره ؛ لذلك قد يجعل الالتزام بها مُتَغَيِّراً ، وقد يطرأ عليك ما يبدو متناقضاً في الظاهر .

فالموضوء مثلاً ، البعض يرى فيه نظافة للبدن ، فإذا انقطع الماء وعدم وجوده حلٌ محله التيمم بالتراب الطاهر الذي تُغْبِرُ به أعضاء التيمم ، إذن : ليس في الأمر نظافة ، إنما هو الالتزام والانقياد واستحضار أنك مُقْبِلٌ على أمر غير عادي يجب عليك أن تتطهر له بالموضوء ، فإن أمرتك بالقيم فعليك الالتزام دون البحث في أسباب الأمر وعلته .

وهكذا يكون الأدب مع الأوامر وتعظيمها : لأنها من الله ، ولم لا ونحن نرى مثل هذا الالتزام أو رياضة التأديب في الالتزام في تعاملاتنا الطبيعية الحياتية ، فمثلاً الجندي حين يُجُنَّد يتعلم أول ما يتعلم الانضباط قبل أن يُمسك سلاحاً أو يتدرب عليه ، يتعلم أن كلمة « ثابت » معناها عدم الحركة مهما كانت الظروف فلو لدغته عقرب لا يتحرك .

ويدخل المدرب على الجنود في صالة الطعام فيقول : ثابت فينقذ الجميع .. الملعقة التي في الطبق تظل في الطبق ، والملعقة التي في

فم الجندي تظل في فمه ، فلا ترى في الصلاة الواسعة حركة واحدة . وهذا الانضباط الحركي السلوكي مقدمة للانضباط في الأمور العسكرية الهامة والخطيرة بعد ذلك .

إذن : قربك - عز وجل - أولى بهذا الانضباط : لأن العبادة ما هي إلا انضباط عابد لاوامر معبود وطاعة مطلقة لا تقبل المناقشة : لأنك لا تؤذيها لذاتها وإنما انقياداً لأمر الله ، ففي الطواف تُقبل الحجر الأسود ، وفي رمي الجمار ترمى حجراً ، وهذا حجر وذاك حجر ، هذا ندوسه وهذا نُقبله فحجر يُقبل وحجر يُقتل : لأن المسألة مسألة طاعة والتزام ، هذا كله من تعظيم حرمان الله .

لذلك الإمام علي - رضي الله عنه - يلفتنا إلى هذه المسألة فيقول في التيمم : لو أن الأمر كما نرى لكان مسح باطن القدم أولى من ظاهرها^(١) : لأن الأوساخ تعلق ببطن القدم أولاً .

وقد ذكرنا في الآيات السابقة أن الحرمات خمس : البيت الحرام ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، والمشعر الحرام ، والشهر الحرام ، وحرمات الله هي الأشياء المحرمة التي يجب ألا تفعلها .

ثم يبين الحق سبحانه جزاء هذا الالتزام : ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ..﴾ (الحج) الخيرية هنا ليست في ظاهر الأمر وعند الناس أو في ذاته ، إنما الخيرية للعبد عند الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُغْلَى عَلَيْكُمْ ..﴾ (الحج) قد نقول : كيف وهي حلال من البداية وفي الأصل .

(١) روى أبو داود في سننه (١٦٢) عن علي بن أبي طالب أنه قال : لو كان الدين بالرائي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه ، وقد رايت رسول الله ﷺ يسمح على ظاهر خفيه . وفي رواية أخرى (١٦١) : لو كان الدين بالرائي لكان باطن القدمين لحق بالمسح من ظاهرها .

قالوا : لأنه لما حُرِّمَ الصيد قد يظن البعض أنه حرام دائماً فلا ينتفعون بها ، فيُبين سبحانه أنها حلال إلا ما ذكر تحريمه ، ونص القرآن عليه في قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخنزِيرِ وَمَا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمَنْخَنَةُ ^(١) وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ .. ﴾ [المائدة]

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ .. ﴾

[الأنعام] (١٧١)

ومعنى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ .. ﴾ [الحج] الرجس : النجاسة الغليظة المتغلغلة في ذات الشيء ، يعنى : ليست سطحية فيه يمكن إزالتها ، وإنما هي في نفس الشيء لا يمكن أن تفصلها عنه .

﴿ وَاجْتَنِبُوا .. ﴾ [الحج] لا تدل على الامتناع فقط ، إنما على مجرد الاقتراب من دواعي هذه المعصية ؛ لأنك حين تقترب من دواعي المعصية وأسبابها لا بد أن تداعيك وتشغل خاطرك ، ومن حرام حول الشيء يوشك أن يقع فيه ، لذلك لم يقل الحق - سبحانه وتعالى - امتنعوا إنما قال : اجتنبوا ، ونعجب من بعض الذين أسرفوا على أنفسهم ويقولون : إن الأمر في اجتنبوا لا يعنى تحريم الخمر ، فلم يقل : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْخَمْرُ .

نقول : اجتنبوا أبلغ في النهي والتحريم وأوسع من حُرِّمَتْ عَلَيْكُم ، لو قال الحق - تبارك وتعالى - حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْخَمْرُ ، فهذا يعنى أنك لا تشربها . ولكن لك أن تشهد مجلسها وتعصرها وتحملها

(١) المنخنة : البهيمة التي تلف حبلها حول عنقها لخنقها فماتت . والموقوذة : هي الحيوان الذي وقذ (ضرب) بعضاً أو حجر حتى مات قبل أن يتنكى ذكاة شرعية ، والمتردية : هي التي ماتت بسبب سقوطها في حفرة ، والنطيحة : ما ماتت بسبب النطح . [القاسوس اللويمي] .

وتبيعها ، أما لجتنبوا فتعنى : احذروا مجرد الاقتراب منها على أى وجه من هذه الوجوه .

لذلك ، نجد الاداء القرآنى للمطلوبات المنهجية فى الأوامر والنواهي من الله يفرق بين حدود ما أحل الله وحدود ما حرم ، ففي الأوامر يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهَا ۚ ۞ ﴾ (٢٢٩) [البقرة]

وفى النواهي يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۚ ۞ ﴾ (٢٨٧) [البقرة]

ففى الأوامر وما أحل الله لك قف عند ما أحل ، ولا تتعداه إلى غيره ، أما المحرمات فلا تقترب منها مجرد اقتراب ، فلما أراد الله نهي آدم وحواء عن الأكل من الشجرة قال لهما : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ۚ ۞ ﴾ (٢٠) [البقرة]

وبعد أن أمر الحق سيحانه باجتنب الرجس فى عبادة الأصنام قال : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۚ ۞ ﴾ [الحج] فقرن عبادة الأوثان بقول الزور ، كأنهما فى الإثم سواء ؛ لذلك النبى ﷺ سلم يوماً من صلاة الصبح ، ثم وقف وقال : « ألا وإن شهادة الزور جعلها الله بعد الأوثان » (١) .

لماذا ؟ لأن فى شهادة الزور جماع لكل حيثيات الظلم ، فساعة يقول : ليس للكون إله ، فهذه شهادة زور ، وقائلها شاهد زور ، ساعة يقول : الإله له شريك فهذه شهادة زور ، وقائلها شاهد زور ، كذلك حين يظلم أو يُغير فى الحقيقة ، أو يذم الآخرين ، كلها داخلة تحت شهادة الزور .

(١) من خريم بن غانك الأسدى قال : « صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح ، فلما انصرف قائماً قال : عدلت شهادة الزور الإشراف بالله (ثلاثاً) ، ثم تلا هذه الآية ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۚ ۞ ﴾ [الحج] » أخرجه أحمد فى مسنده (٢٢٦/٤) ، والقرمذى فى مسنده (٢٢٠٠) ، وأبو داود فى سننه (٣٥٩٩) .